مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

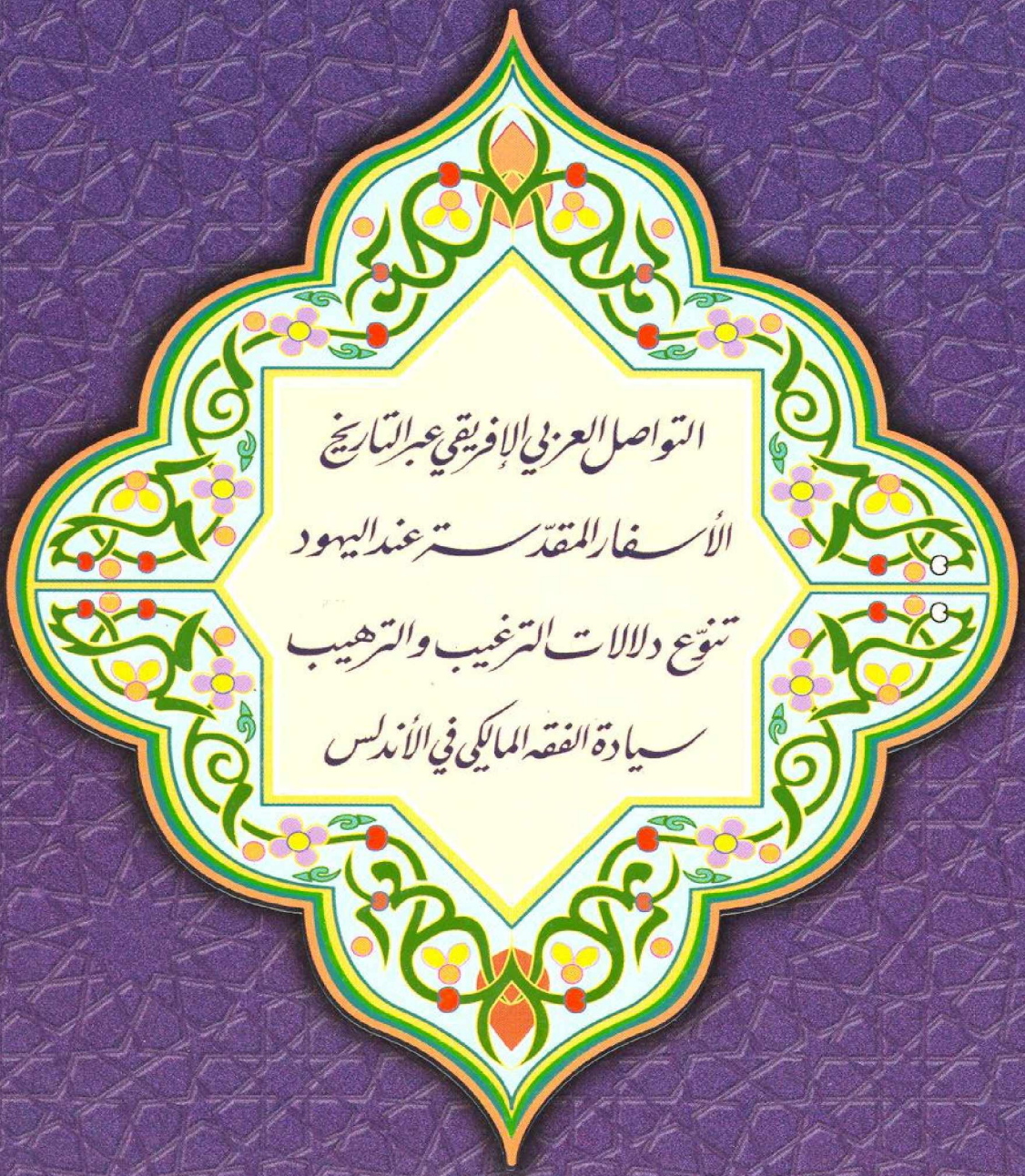

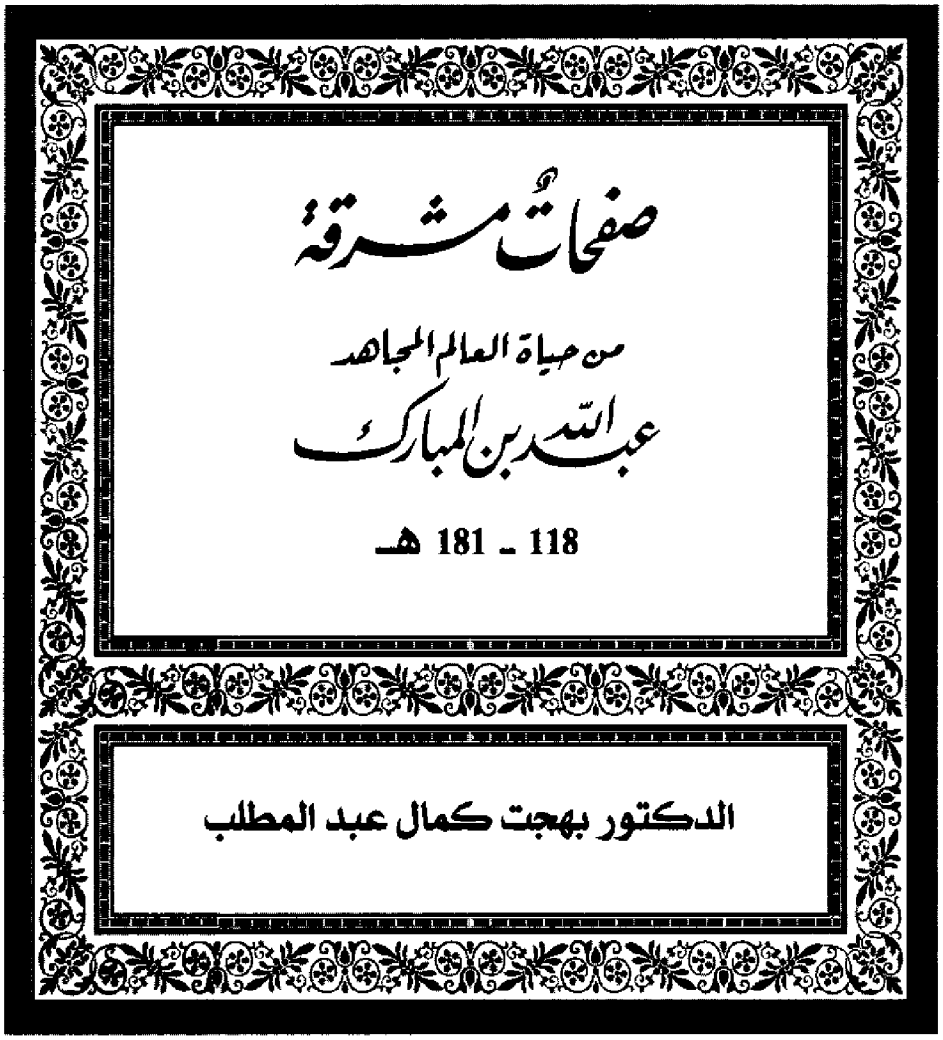

«نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا في صحبتهم رسول الله ﷺ» سفيان بن عيينة

تميزت رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية أن ضمت في صفوفها مختلف الأقوام والأجناس وجعلت منها أمة واحدة[1]، تدين بالوحدانية وتسعى لتحرير الإنسان من الشرك والعبودية والضلال وتقوده إلى طريق النجاة والطمأنينة والتقدم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

(1) Watt, W. Montgomery: Islam and the Integration of Society, 3rd Edition, London, 1961.

(2) سورة الحجرات، الآية: 13.

إن مبدأ العدل والمساواة الذي سارت عليه الدولة الإسلامية منذ نشأتها أتاح المجال لأبناء هذه الأمم التي اعتنقت الإسلام وآمنت برسالته السمحاء، أن يلعب كل منهم دوره في الحياة حسب قابلياته وإمكانياته، فلا غرابة أن برز المئات بل الآلاف من العلماء والمفكرين وكان عالمنا عبد الله بن المبارك أحد هؤلاء الأعلام الأفذاذ الذين ساهموا في إرساء وبناء قواعد الحياة الفكرية للدولة الإسلامية وعملوا على نمو وازدهار مظاهرها الحضارية المختلفة.

اسمه ونسبه ومولده:

عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي[3] وقيل التميمي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي[4]. ولد سنة ثمان عشرة ومائة على أرجح الروايات في مدينة مرو[5]. وقال البخاري ت255هـ. ولاؤه لبني

---

(3) الحنظلي: بفتح الحاء وسكون النون وفتح الظاء المعجمة وفي آخرها لام ـ هذه النسبة إلى حنظلة بطن من غطفان.

السمعاني، أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت562هـ الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408/ 1988، ج2، ص275؛ ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الاحد الشيباني ت 630هـ/ 1213م اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت 1400/ 1980، ج1، ص396.

(4) الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي الخطيب ت463هـ/ 1070م تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الفكر، بيروت (د.ت) ج1 ص152؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت 1398/ 1978 ج5، ص106؛ اللباب في تهذيب الأنساب، ج1، ص396.

ابن خلكان، أبي العباس، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكرت 681هـ/ 1282م وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1397/ 1977، ج3، ص32.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي ت748هـ/ 1347م: تذكره الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت) مصوره عن طبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1376/ 1956، ج1، ص274 ـ 275.

(5) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج10 ص153 يورد رواية عن قضيب بن المحرر الباهلي أن عبد الله بن المبارك الخراساني مولى بني عبد شمس من بني سعد تميم. انظر كذلك، وينقلها الذهبي: سير أعلام النبلاء ط1، تحقيق نذير حمدان، مؤسسة الرسالة، بيروت 1401/ 1981،

حنظلة[6]، كانت أمه خوارزمية وأبوه تركي[7] عبداً لرجل تاجر من همذان، من بني حنظلة[8]. وكان عبد اللّه إذا قدم همذان يخضع لوالديه ويعظمهم[9].

لم تقدم لنا المصادر شيئاً يذكر عن طفولته وصباه ويذكر لنا ابن خلكان ت681هـ قصة زواج والده من أمه[10] والذهبي ت748هـ/ 1347م هو أول من

ج8. ص336؛ انظر كذلك ابن فرحون: إبراهيم بن علي بن محمد برهان الدين اليعمري ت799هـ: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مطبعة المعاهد، مصر 1351هـ ص131، ابن حجر العسقلاني، شمس الدين أبي الفضل أحمد بن علي ت852هـ، تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الدكن، الهند، 1326هـ، ج5، ص382.

(6) ابن سعد، أبي عبد اللّه محمد بن سعد بن منيع البصري الهاشمي كاتب الواقدي ت230هـ/ 844م: الطبقات الكبري، دار التحرير، القاهرة 1388/ 1968، ج7 القسم الثاني ص104؛ ابن قتيبة: أبي محمد عبد اللّه بن مسلم الدينوري ت276هـ: المعارف، تحقيق ثورة عكاشة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1960، ص511؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10 ص153 ـ 154، ويذكر أيضاً رواية عن محمد بن نعيم أن عبد اللّه بن المبارك قال ولدت سنة تسع عشرة ومائة ج10 ص154؛ وفي رواية أخرى أن عبد اللّه بن المبارك قال: «ذاكرني عبد اللّه بن إدريس السن فقال: ابن كم أنت؟ فقلت: إن العجم لا يكادون، يحفظون ذلك، ولكن أذكراني لبست السواد وأنا صغير عندما خرج أبو مسلم. كذلك الذهبي: سير أعلام النبلاء ج8، ص339.

(7) الذهبي: سير أعلام، ج8، ص338، وروى أيضاً عن قضيب بن المحرر «ابن المبارك مولى بني عبد شمس من تميم».

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج1، ص153؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1، ص275، سير أعلام النبلاء، ج8، ص338، ابن كثير، أبي الفداء الدمشقي ت774هـ/ 1372م: البداية والنهاية ط3 تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العالمية، بيروت 1407/ 1987، م5، ج10، ص184.

(8) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج10، ص153، بينما يذكر الجزري «كان أبوه مولى تاجر» ولا يحدد هويته، شمس الدين محمد بن عبد اللّه الشافعي ت بعد 660هـ/ 1262م: غاية النهاية في طبقات القراء، مطبعة السعادة مصر 1932، ج1، ص446، ويوافقه الرأي ابن كثير، البداية والنهاية م5، ج10، ص184.

(9) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10، ص153، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص338.

(10) ذكر ابن خلكان «أن أباه كان يعمل في بستان لمولاه وأقام فيه زماناً، ثم أن مولاه جاءه يوماً وقال له: أريد رماناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رماناً فكسره فوجده حامضاً، فرد عليه وقال: اطلب الحلو فتحضر لي الحامض، هات حلواً، فمضى وقطع من شجرة أخرى، فلما كسره وجده أيضاً حامضاً فاشتد حرده عليه، وفعل كذلك دفعة ثالثة، فقال له بعد ذلك أنت

أشار إلى رغبته في طلب العلم حيث ذكر أن عبد الله بن المبارك طلب العلم وهو ابن عشرين سنة[11].

شيوخه:

على العكس من المعلومات الشحيحة عن طفولته وصباه فإن المصادر قدمت قوائم طويلة بإسماء شيوخه[12]. وروى عن عبد الله بن المبارك أنه قال: «حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ، فرويت عن ألف شيخ...»[13] وكانت لهم مكانتهم في نفسه فقد روى إسماعيل بن علي بن إسماعيل ت350هـ[14] قال: «بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حماد بن زيد (ت179هـ) مسلماً عليه فقال

ما تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: لا، فقال: كيف ذلك؟ فقال: لأنني ما أكلت شيئاً حتى أعرفه، فقال: ولم لم تأكل؟ قال: لأنك ما أذنت لي، فكشف عن ذلك فوجد قوله حقاً، فعظم في عينه وزوجه ابنته ويقال: إن عبد الله رزق من تلك الابنة، فنمت عليه بركة أبيه. وفيات الأعيان ج2، ص32.

أما ابن العماد الحنبلي فيورد نفس القصة ولكن المولى طلب رماناً حامضاً وبعد أن تأكد له صدق المبارك عظم قدره عنده فكان له بنت خطبت كثيراً فقال له يا مبارك من ترى يتزوج هذه البنت فقال في الجاهلية كانوا يزوجون للحسب واليهود للمال والنصارى للجمال وهذه الأمة للدين فأعجبه عقله وقال لأمها مالها زوج غيره فتزوجها فجاءت بعبد الله وكان واحد وقته...».

أبو الفرج عبد الحي الحنبلي ت1089هـ/ 1678م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت) م1 ج1، ص295).

(11) سير أعلام النبلاء، ج8، ص336، ولكنه يحدد بداية رحلته سنة 141هـ وأكثر الترحال والطواف إلى أن مات في طلب العلم وفي الغزو والتجارة...

انظر كذلك ابن تغري بردى جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ت874هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية (د.ت)، ج2، ص103.

(12) ومن هذه القوائم قائمة الخطيب البغدادي وهم: هشام بن عروة، وإسماعيل بن أبي خالد، وسليمان الأعمش، وسليمان التيمي، وحميد الطويل، وعبد الله بن عون، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وموسى بن عقبة، وسعيد الجريري، ومعمر بن راشد، وابن جريح، وابن أبي ذئب، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وشعبة والأوزاعي، والليث بن سعيد، ويونس بن يزيد، وإبراهيم بن سعد، وزهير بن معاوية، وأبا عوانة، تاريخ بغداد، ج10، ص152.

(13) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج8 ص336 ـ 337، وفي نهاية القائمة ذكر الذهبي و«خلق كثير»، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ج5، ص 382 ـ 384.

(14) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص352.

أصحاب الحديث لحماد بن زيد: يا أبا إسماعيل تسأل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا؟ فقال يا أبا عبد الرحمن تحدثهم، فإنهم قد سألوني قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدث وأنت حاضر! قال فقال: أقسمت لتفعلن ـ أو نحوه ـ قال فقال ابن المبارك خذوا. . .»[15].

تلامذته:

سمع وحدث عن عبد الله بن المبارك عدد كبير من رجال الحديث وطلاب العلم في مختلف الأقاليم والبلدان والمدن التي حل بها في رحلاته وأسفاره التي استمرت منذ صباه إلى آخر يوم من حياته[16]. وقد ذكر الذهبي بعد أن دون عدد ممن سمع حدث عنه «وأمم يتعذر إحصاؤهم ويشق استقصاؤهم وحديثه حجة بالإجماع وهو في المسانيد والأصول»[17]. ووصف حديثه بقوله: «ووقع لي حديثه من غير وجه عالياً. والإجازة بيني وبينه ستة أنفس والله إني لأحبه في الله وأرجو الخير بحبه كما منحه الله من التقوى والعبادة والإخلاص والجهاد وسعة العلم والاتقان والمواساة والفتوة والصفات الحميدة»[18].

رحلاته وأسفاره:

ذكر أنه طلب العلم وهو ابن عشرين سنة فرحل إلى العراق والشام ومصر

---

(15) أبو محمد الخطبي: مؤرخ ثقة من أهل بغداد. كان عارفاً بأخبار الخلفاء، ابن الأثير: اللباب، ج1، ص379.

(16) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج10، ص155.

(17) أورد الخطيب البغدادي قائمة بأسماء من حدث عنهم ومنهم «داود بن عبد الرحمن العطار، وسفيان بن عيينة، وأبو إسحاق الفزاري، ومعتمر بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن وهب، ويحيى بن آدم وعبد الرزاق بن همام، وأبو أسامة، ومكي بن إبراهيم، وموسى بن إسماعيل، ومسلم بن إبراهيم،وعيدان بن عثمان، ويعمر بن بشر، وأبو النضر هاشم بن القاسم، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن أبي شيبة، والحسن بن الربيع البوراني، والحسن بن عرفه، ويعقوب الدورقي، وإبراهيم بن مجسر، وغيرهم تاريخ بغداد، ج10، ص153، انظر كذلك، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ج5، ص383 ـ 384.

(18) سير أعلام النبلاء ج8 ص337؟ تذكرة الحفاظ ج1 ص275 قوله حدث عنه خلق لا يحصون من أهل الأقاليم فإنه من صباه ما فتر عن السفر.

وبلاد اليمن والحجاز[19]. وكثرت أسفاره وسمع علماً كثيراً وواصل رحلاته وجهاده في سبيل الله إلى آخر أيامه. قدم عبد اللّه بغداد غير مرة وحدث بها[20]. وذكر ابن الجوزي ت597هـ أنه كان لعبد الله بن المبارك مسجد في بغداد في صدر قطيعة الربيع درس فيه أحمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الإسفراييني المتوفى سنة 406هـ[21] والحسين بن محمد أبي عبد اللّه الكشفلي الطبري ت 414هـ[22].

أدبه وتواضعه:

روى أن رجلاً عطس عند ابن المبارك فقال له ابن المبارك إيش يقول الرجل إذا عطس؟ قال يقول الحمد لله، فقال له ابن المبارك يرحمك الله، فعجب الحضور من حسن أدبه[23]. وكان عبد اللّه بن المبارك يقول: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها قيل له: وما أطيب ما فيها؟ فقال: المعرفة بالله عز وجل»[24].

وقال: «لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعاً ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعت الله تعالى قال لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[25] فقال الله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[26].

---

(19) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1، ص275.

(20) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج7 ق2، ص105.

(21) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج1، ص153.

(22) ابن الجوزي: أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ت597هـ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الدار الوطنية بغداد 1990، ج7، ص277.

(23) ابن الجوزي: المنتظم، ج8، ص13.

(24) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج10، ص155.
الأصبهاني، أبي نعيم أحمد بن عبد اللّه ت430هـ/ 1038م: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت 1400/ 1980، ج8، ص167.

(25) سورة هود، الآية: 45.

(26) سورة هود، الآية: 46.

وقد سئل ابن المبارك ما ينبغي للعالم أن يتكرم عنه، قال: «ينبغي أن يتكرم عما حرم الله تعالى عليه، ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال»[27]. وسئل عبد الله وقيل له ما ينبغي أن يجعل عظة شكرنا له؟ قال: «زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم، وذلك أن زيادة آخرتكم لا تكون إلا بنقصان دنياكم، وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان آخرتكم»[28]. وقال أيضاً: «حب الدنيا في القلب والذنوب احتوشته فمتى يصل الخير إليه»[29]. وكان عبد الله غنياً شاكراً ماله نحو الأربع مئة ألف[30]. وكان رحمه الله شاعراً محسناً قوالاً بالحق، كتب إلى إسماعيل بن علية ت193هـ لما تولى القضاء[31]:

يا جاعل العلم له بازيا ... يصطاد أموال المساكين

احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين

فصرت مجنوناً بها بعدما ... كنت دواء للمجانين

أين رواياتُك في سردها ... عن ابن عون وابن سيرين

أين رواياتك فيما مضى ... في ترك أبواب السلاطين

إن قلت أكرهت فماذا كذا ... زل حمار العلم في الطين

ومن شعره الذي يدل على تواضعه وتقواه قوله[32]:

أيأذن نزلت بي يا مشيب ... أي عيش وقد نزلت يطيب

وكفى الشيب واعظاً غير أني ... آمل العيش والممات قريب

كم أنادي الشباب إذ بان مني ... وندائي مولياً ما يجيب

يا عائب الفقر ألا تزدجر ... عيب الغنى أكثرُ لو تعتبر

---

(27) الأصبهاني: حلية ج8، ص167.

(28) المصدر نفسه ـ الجزء والصفحة.

(29) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(30) الذهبي: سير أعلام ج8، ص361.

(31) المصدر نفسه ج8، ص363 ـ 364.

(32) المصدر نفسه، ج8، ص367 ـ 368.

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صح منك النَّظر
إنك تعصي لتنال الغنى وليس تعصي الله كي تفتقر

ومن أدبه وتواضعه قوله «من استخف بالعلماء، ذهبت آخرته ومن استخف بالإخوان، ذهبت مروءته»[33].

وسئل عن الكِبْرُ؟ «قال: أن تزدري الناس. وسئل عن العُجْب؟ قال: إن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم شيئاً في المصلين شراً من العجب»[34].

وكان يقول: «إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوئ وإذ غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن»[35].

وقد سئل أيضاً ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ شقيق يستشيره قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قيل: فإن لمن يكن؟ قال: موت عاجل»[36].

حبه للخلوه:

كان ابن المبارك يحب الخلوة والانقطاع، فقد روى عن شقيق بن إبراهيم البلخي ت194هـ[37] أنه قال: «قيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال اذهب مع الصحابة والتابعين، قلنا له ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: اذهب انظر في علمي فادرك آثارهم وأعمالهم فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس، فإذا كان سنه ثمانين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله،

---

(33) المصدر نفسه، ج8، ص361.

(34) المصدر نفسه، ج8، ص360.

(35) المصدر نفسه، ج8، ص302.

(36) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(37) شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، واحد صوفي من مشاهير المشائخ في خراسان وكان من كبار المجاهدين، السلمي أبي عبد الرحمن محمد بن الحسن بن موسى ت412هـ/ 1021م: طبقات الصوفية ط3، تحقيق نور الدين شربيه، مكتبة الخانجي، القاهرة 1406/ 1986، ص61 ـ 66.

وفر من الناس كفرارك من الأسد، وتمسك بدينك يسلم لك مجهودك»[38].

وروى عن نعيم بن حماد ت228هـ[39] أن عبد الله بن المبارك كان «يكثر الجلوس في بيته، فقيل له ألا تستوحش؟ فقال: كيف استوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه»[40].

وسئل ابن المبارك، من تجالس بخراسان؟ قال: أجالس شعبه وسفيان قال السائل يعني انظر في كتبهما[41] وقد أخذ هذه الصفة عن أبيه الذي عرف بأنه كثير الانقطاع محبٌ للخلوة شديد التورع[42].

كرمه وسخاؤه:

عرف ابن المبارك بين أصحابه وأقرانه بكرمة وسخائه وسعة يده وكان كلما قل وارده أكثر من عشرة آلاف درهم سنوياً ينفقها جميعاً أو يزيد عليها. وندرج أدناه مشاهد وصور من كرمه.

خرج عبد الله بن المبارك من مصر قاصداً مكة المكرمة وصحبه ناس من أهلها، فروى عنهم أنه كان يطعمهم الخبيص[43]، وهو الدهر صائم[44].

وكان ابن المبارك إذا حان وقت الحج «اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتو نفقاتكم، فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم، ويطعمهم

---

(38) الأصبهاني: حلية، ج8 ص164 ـ 165.

(39) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي أول من جمع «المسند» في الحديث وكان أعلم الناس بالفرائض. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج13 ص306؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ ج2 ص418.

(40) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10، ص306، الذهبي: سير أعلام ج8، ص339.

(41) الأصبهاني: حلية ج8، ص 164.

(42) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج3، ص32.

(43) الخبيص: الحلوى، ابن منظور محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري ت711هـ: لسان العرب إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت (د. ت) مادة خيص.

(44) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10 ص157، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج8 ص341 ـ 342.

أطيب الطعام وأطيب الحلوى ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة رسول الله ﷺ، فيقول لكل واحد: فما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة طرفها؟ فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجهم، قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك، أن تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو فيجصص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة، وكساهم، فإذا أكلوا وستروا، دعا بالصندوق، ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته، عليها اسمه»[45].

وخرج ابن المبارك يوماً من بغداد قاصداً المصيصة[46] فصحبه الصوفية فقال لهم: «أنتم بكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم، يا غلام هات الطست، فألقى على الطست منديلاً ثم قال يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، قال فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيصة، فلما بلغ المصيصة قال: هذه بلاد نفير، فنقسم ما بقي فجعل يعطي الرجل ديناراً. فيقول يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً، فيقول وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته»[47].

روى أن رجلاً جاء إلى ابن المبارك «فسأله أن يقضي ديناً عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل: كم الدين الذي سألته قضاءه؟ قال: سبع مئة درهم، وإذا عبد الله قد كتب له أن يعطيه سبعة آلاف درهم، فراجعه الوكيل، وقال: إن الغلات قد فنيت، فكتب إليه عبد الله: إن

---

(45) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه ج10، ص 158، الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامه القمري، دار الفكر بيروت، 1417هـ/ 1997م، ج7 ص606 ـ 607.

(46) المصيصة: وهي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس... وكانت من مشهور ثغور الشام قد رابط بها الصالحون قديماً وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان... شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ت626هـ/ 1228م: معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1376هـ/ 1957م، ج5، ص144 ـ 145.

(47) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه، ج10، ص157، الذهبي: المصدر نفسه ج7، ص606.

كانت الغلات قد فنيت فإن العمر أيضاً قد فنى، فاجز له ما سبق به قلمي»[48].

وكان هدفه من الإنفاق هو نشر الإسلام وترسيخه في قلوب معتنقيه فقد سأله الفضيل بن عياض ت187هـ أنت تأمرنا بالزهد والتقلل، والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي إنما أفضل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به. فقال له الفضيل: يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا»[49].

ولما عوتب ابن المبارك فيما يفرق المال في البلدان ولا يفعل في أهل بلده قال: «إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، بحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع عليهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم[50].

وكان ابن المبارك كثير التردد إلى طرسوس وكان ينزل الرقة في خان فكان هناك شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث فلما قدم مرة لم يجده فلما سأل عنه بعد عودته من الغزو عرف أنه محبوس على دين قدره عشرة آلاف درهم. فسأل عن صاحب الدين ولما عرف مكانه وزن له عشرة آلاف وحلفه ألا يخبر أحداً ما عاش وبذلك أفرج عن الصبي دون أن يعرف من الذي دفع دينه[51].

ولما دخل عليه أبو أسامة وجد في وجهه أثر الضُّرِّ، فلما خرج، بعث إليه أربعة آلاف درهم، وكتب إليه[52]:

وَفَتًى خَلا مِن مالِهِ وَمِنَ المُروءَةِ غَيرُ خالِ

---

(48) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه، ج10، ص158 ـ 159، الذهبي: المصدر نفسه، ج7، ص607.

(49) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه، ج10، ص160.

(50) الذهبي: المصدر نفسه، ج7، ص608.

(51) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه، ج10، ص159، الذهبي: المصدر نفسه ج7، ص607.

(52) الذهبي: المصدر نفسه، ج7، ص 622.

أعْـطَـاكَ قَـبْـلَ سُـؤالِـه وكَـفـاك مـكـروه الـسـؤالِ

ولما سئل عيسى بن يونس ت187هـ كيف فضلكم ابن المبارك ولم يكن بأسن منكم؟ قال: كان يقدم، ومعه الغلمة الخراسانية والبزة الحسنة، فيصل العلماء، ويعطيهم، وكنا لا نقدر على هذا»[53].

وقيل إنه أرسل إلى أحدهم أربعة آلاف درهم، فقال: «تستر بها فتنة القوم عنك»[54].

وعن محمد بن عبد الرحمن بن سهم قال: كنت مع ابن المبارك فكان يأكل كل يوم، فيشوي له جدي، ويتخذ له فالوذِج فقيل له في ذلك. فقال: إني دفعت إلى وكيلي ألف دينار وأمرته أن يوسع علينا»[55].

وروى أنه قال للفضل بن عياض «لولاك وأصحابك ما اتجرت وقال الفضل أنه كان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم»[56]. وروى عن خادمه أن عبد اللّه بن المبارك عمل آخر سفرة سافرها دعوة فقدم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً فالوذج[57].

مكانته بين العلماء:

ومن خلال دراسة المصادر التي ترجمت لحياة الإمام العالم المجاهد عبد اللّه بن المبارك يلاحظ أنه يحتل مكانة عالية في نفوسهم لخلقه وكرمه وعلمه وشجاعته. سأل الإمام الأوزاعي ت157هـ أحد أصحابه هل رأيت ابن المبارك فقال لا، فأجابه الأوزاعي: «لو رأيته لقرت عيناك»[58]، وروى عن

---

(53) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(54) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(55) الذهبي: الصمدر نفسه والجزء والصفحة.

(56) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه، ج10، ص158.

(57) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه، ج7، ص .

(58) الأصبهاني: المصدر السابق، ج8، ص162.

يحيى بن آدم ت203هـ أنه قال: «ما رأيت أحداً يحدث لله إلا ستة نفر منهم ابن المبارك»[59].

وعن ابن مَهدي ت198هـ قال: الأئمة أربعة سفيان، ومالك وحماد بن زيد، وابن المبارك»[60].

وروى عنه أيضاً أنه قال:

ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من سفيان، ولا أحسن عقلاً من مالك، ولا أقشف من شعبة، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك»[61]. وفي رواية أخرى يقول: «ما رأيت عيناي مثل أربعة: ما رأيت: أحفظ للحديث من الثوري، ولا أشد تقشفاً من شعبة، ولا أعقل من مالك، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك»[62].

وسئل ابن المهدي، أيهما أفضل، ابن المبارك، أو سفيان الثوري[63]، فقال: ابن المبارك، فقيل له: إن الناس يخالفونك. فأجاب أنهم لم يجربوا، ما رأيت مثل ابن المبارك[64].

وقال عنه كان نسيج وحده[65]. وهو أعلم من سفيان الثوري[66]. وقال في مناسبة أخرى: «لو أن سفيان جهد على أن يكون يوماً مثل عبد اللّه لم يقدر»[67]. وروى عن سفيان الثوري قوله: «إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة مثل ابن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام»[68].

---

(59) الذهبي: المصدر نفسه، ج7، ص608.

(60) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(61) الخطيب البغدادي المصدر نفسه، ج10، ص161، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(62) الخطيب البغدادي المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(63) الذهبي: المصدر نفسه: تحقيق نذير حمدان، ج8، ص333.

(64) ابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد ت328هـ: العقد الفريد، تقديم الأستاذ خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال، بيروت 1986 ج2 ص17، ابن خلكان ج2، ص387.

(65) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصحفة.

(66) الذهبي: المصدر نفسه ج8، ص344.

(67) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10 ص16، الذهبي سير أعلام ج8 ص344.

(68) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي المصدر نفسه والجزء والصفحة.

وسأل رجل سفيان فقال: من أين أنت؟ قال: من أهل المشرق قال: أوليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو؟ قال: عبد الله بن المبارك. قال: هو أعلم أهل المشرق؟ قال: نعم وأهل المغرب[69].

كان فضيل وسفيان ومشيخة جلوساً في المسجد الحرام وطلع ابن المبارك من الثنية، فقال سفيان: هذا رجل أهل المشرق؟ فقال فضيل: رجل أهل المشرق والمغرب وما بينهما[70].

ولما كان بمكة طلب منه أن يحدث جماعة فخاطبوه بعالم المشرق وكان سفيان قريباً منهم يسمع فيجيبهم «ويحكم عالم المشرق والمغرب وما بينهما»[71].

وقال عنه سفيان بن عيينة ت198هـ «رحم الله عبد الله بن المبارك ما خلف بخراسان مثله»[72]. وقال ابن عيينة «نظرت في أمر الصحابة، وأمر عبد الله فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي ﷺ، وغزوهم معه»[73].

روي عن ابن إسحاق الفزاري ت188هـ قوله: «إن ابن المبارك أمام المسلمين أجمعين»[74]. ويعلق الذهبي على هذا الإطلاق أنه يعني بمسلمي زمانه. وقد شوهد الفزاري بين يدي ابن المبارك قاعداً يسأله[75].

وقيل في مدح ابن المبارك[76]:

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالُها

(69) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(70) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه ج10 ص162، الذهبي: المصدر نفسه ج8 ص345.
(71) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه ج8 ص345.
(72) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(73) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(74) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء ص163، الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص346.
(75) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص345 ـ 346.
(76) الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص346.

إذا ذكـر الأحـبـار فـي كـل بـلـدة فـهـم أنـجـم فـيـهـا وأنـت هـلالـهـا

وعن علي بن المديني أنه قال: «انتهى العلم إلى رجلين: إلى ابن المبارك، ثم إلى ابن معين»[77]. وروى عنه أنه قال: «عبد اللّه بن المبارك أوسع علماً من عبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن آدم»[78].

وروى أن يحيى بن آدم كان يقول: «كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك آيست منه»[79].

وقيل أفقه الناس ابن المبارك، وأورع الناس الفضيل، وأحفظ الناس وكيع بن الجراح[80].

وعن يحيى بن معين ت242هـ قال: «ذكر أصحاب سفيان، فقال خمسة: ابن المبارك، فبدا به، ووكيع، ويحيى، وابن مهدي، وأبو نعيم»[81].

وقيل لابن معين: «اختلف القطان ووكيع، قال: القول قول يحيى، قال: فإذا اختلف عبد الرحمن، ويحيى؟ قال: يحتاج من يفصل بينهما. قلت: فأبو نعيم وعبد الرحمن؟ قال: يحتاج من يفصل بينهما. قلت: الأشجعي؟ قال: مات الأشجعي ومات حديثه معه. قلت: ابن المبارك؟ قال: ذاك أمير المؤمنين في الحديث»[82].

سأل رجل يحيى بن معين من أثبت في مَعْمر؟ ابن المبارك أو عبد الرزاق؟ قال: كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن أهل قريته كان عبد اللّه سيداً من سادات المسلمين[83].

---

(77) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(78) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(79) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(80) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج1 ص164، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(81) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص347.
(82) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(83) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء ص165، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

وسئل إبراهيم الحربي ت298هـ إذا اختلف أصحاب معمر؟ قال: القول قول ابن المبارك[84].

وقال أسود بن سالم: «كان ابن المبارك إماماً يقتدى به، كان من أثبت الناس في السنة، إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك، فاتهمه على الإسلام»[85].

قال الإمام أحمد بن حنبل ت241هـ: «لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه»[86].

وعن شعبة: «ما قدم علينا أحد مثل ابن المبارك»[87].

وقيل: «هو في المحدثين مثل أمير المؤمنين في الناس»[88].

وروى عن عبد الرحمن بن عبد الله العمري ت194هـ أنه قال: «ما رأيت في دهرنا هذا ما يصلح لهذا الأمر، يعني الإمامة، إلا ابن المبارك»[89].

قال عبد الله بن إدريس ت192هـ: «كل حديث لا يفرقه ابن المبارك فنحن منه براء»[90].

وروى عن نعيم بن حماد أنه قال: «ما رأيت أعقل من ابن المبارك. ولا أكثر اجتهاداً في العبادة»[91].

وقيل ما أخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة «ابن المبارك والنضر بن شميل ت203هـ ويحيى بن يحيى ت226هـ[92].

وقيل: «انتهى العلم بالبصرة إلى يحيى بن أكثم وقتادة وعلم الكوفة إلى أبي إسحاق والأعمش، وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب وعمرو بن دينار،

---

(84) الخطيب البغدادي: المصدر نفسه والجزء والصفحة، الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصحفة.
(85) الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص348.
(86) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10 ص168، الذهبي: سير أعلام ج8 ص350.
(87) الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص351.
(88) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(89) الذهبي: المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(90) الأصبهاني: حلية ج8 ص162، الذهبي: سير أعلام ج8، ص351.
(91) الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص356.
(92) الذهبي: المصدر نفسه والجزء ص358.

وصار علم هؤلاء الستة إلى سعد بن أبي عروة وشعبة ومعمر وحماد بن سلمة وأبي عوانة، ومن أهل الكوفة إلى سفيان الثوري وسفيان بن عيينة، ومن أهل الحجاز مالك بن أنس ومن أهل الشام الأوزاعي، وانتهى علم هؤلاء إلى محمد بن إسحاق وهشيم ويحيى بن سعيد وابن أبي زائدة ووكيع وابن المبارك وهو أوسع هؤلاء علماً. . .»[93].

من أقواله وحكمه:

أول منفعة الحديث أن يفيد بعضهم بعضاً[94]. وقيل لابن المبارك: «الرجل يطلب الحديث لله يشتد في سنده؟ قال: إذا كان يطلب الحديث لله فهو أولى أن يشتد في سنده»[95]. وقد نصح أحد الرجال بقوله: «إذا ابتليت بالقضاء فعليك بالأثر»[96].

ولما سئل هل بقي من ينصح؟ قال فهل بقي من يقبل؟[97] يدل إلى التغير الكبير الذي وقع في المجتمع الإسلامي بين الفترة الأولى من صدر الإسلام وحياة ابن المبارك.

ولما سئل من الناس؟ (قال العلماء) ومن الملوك؟ قال الزهاد ومن الغوغاء؟ قال خزيمة وأصحابه، فمن السفلة؟ قال الذين يعيشون بدينهم»[98].

ولما سئل أيضاً من أئمة الناس؟ قال سفيان وذووه، ومن سفلة الناس؟ قال: من يأكل بدينه[99].

وقال إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب[100].

---

(93) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10 ص155.

(94) الأصبهاني: حلية الأولياء ج6، ص140،

(95) المصدر نفسه ج8 ص166.

(96) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(97) المصدر نفسه والجزء والصفحة، وعن تفاصيل ذلك راجع ص32 من البحث.

(98) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(99) المصدر نفسه والجزء ص167 ـ 168.

(100) المصدر نفسه والجزء ص168.

وكان لأصحابه مكانة في نفسه فقد روي أنه «إذا زار أصحابه فخمهم، يقول: وأين مثل فلان، ثم يقول الرفيع من يرفعه الله بطاعته والوضيع من وضعه»[101].

وقال أبو داود الطرسوسي لعبد اللّه بن المبارك «أنا نقرأالقرآن» بهذه الألحان، فقال: إنما كره لكم منها، أنا أدركنا القراء وهم يؤتون تسمع قراءتهم، وأنتم تدعون اليوم كما يدعى المفتون»[102].

وقال في الحديث جماعة «الحديث مع الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة، فإذا عظمت الحلقة فأنصت أو انشز»[103].

وقال: «طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون»[104].

وقال: «ذهب الإنس والمانعون ومن يسكن من ظله»[105].

وعن رأيه بالناس قال أحب الصالحين ولست منهم، وأبغض الطالحين، وأنا شر منهم، وقال:[106].

الصمت أزين بالفتى ... من منطق في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى ... في القول عندي من يحينه
وعلى الفتى بوقاره ... سمة تلوح على جبينه
فمن الذي يخفى عليك ... إذا نظرت إلى قرينه
رب امرئ متيقن ... غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه ... فابتاع دنياه بدينه

(101) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(102) المصدر نفسه والجزء ص169.
(103) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(104) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(105) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(106) المصدر نفسه والجزء ص17.

وسأله رجل عن الرباط فقال: رابط بنفسك على الحق حتى تقيها من الحق فذلك أفضل الرباط»[107].

مواقفه السياسية:

موقفه من أهل البدع: قال: «ليكن مجلسك مع المساكين وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة»[108]. ولما سمع أن أحد أصحابه أكل عند صاحب بدعة قال له: «لا كلمتك ثلاثين يوماً»[109].

موقفه من الجهمية «أصحاب جهم بن صفوان ت128هـ.

كان يقول «إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية»[110].

ولما ذكر جهم عند ابن المبارك قال:[111]

عجبت لشيطان أتى الناس داعياً إلى النار وانشق اسمه من جهنم

وقيل لابن المبارك: «كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا؟ قال: على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: أنه هنا هنا في الأرض»[112].

وقال من زعم أن هذا مخلوق، فقد كفر بالله العظيم[113].

وقد أوضح موقفه جلياً من الفتنة التي وقعت بين المسلمين في الخلافة الراشدة سنة 35هـ وقال: السيف الذي وقع بين الصحابة فتنة ولا أقول لأحد منهم هو مفتون»[114] وقال:

إني امرؤ ليس في ديني لغافره لين ولست على الإسلام طعانا

---

(107) المصدر نفسه والجزء والصفحة

(108) المصدر نفسه والجزء ص171.

(109) الذهبي: سير أعلام ج8 ص353.

(110) المصدر نفسه ج8 ص355.

(111) المصدر نفسه ج8 ص363.

(112) المصدر نفسه ج8 ص357.

(113) المصدر نفسه ج8 ص358.

(114) المصدر نفسه ج8 ص366.

فلا أسب أبا بكر ولا عمراً ولن أسب معاذ الله عثمانا
ولا ابن عم رسول الله أشتمه حتى ألبس تحت الترب أكفانا
ولا الزبير حواري الرسول ولا أهدى لطلحة شنماً عز أوهانا
ولا أقول عَلِيّ في السحاب إذاً قد قلت والله ظلماً ثم عدوانا
ولا أقول بقول الجهم أن له قولاً يضارع أهل الشرك أحياناً
ولا أقول تخلى من خليقته رب العباد وولى الأمر شيطاناً
ما قال فرعون هذا في تمرده فرعون موسى ولا هامان طغيانا

وكان ابن المبارك لا يعارض الخلافة العباسية ولكنه يرفض أخذ الأموال من الخلفاء[115] ولما سئل ابن المبارك: أبو مسلم خير أم الحجاج؟ قال: «لا أقول أن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان أشر منه»[116].

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لا قوانا

وفي أحد الأيام كان عبد اللّه بن المبارك عند فضيل بن عياض فقال قائل لفضيل «إن أهلك وعيالك قد احتاجوا مجهودين محتاجين إلى هذا المال، فاتق الله وخذ من هؤلاء القوم»[117] يعني بهم العباسيين فزجره ابن المبارك وقال:

خذ من السجاروش والـ أرز والخبز الشعير
واجعلن ذاك حلالاً تنج من حر السعير
وأنا ما استطعت هداك الله عن دار الأمير
لا تزرها واجتنبها أنها شر مزور
توهين الدين وتد نيك من الحوب الكبير

(115) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج8 ص366 ـ 367.

(116) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج3 ص33.

(117) قيل لما احتضر ابن المبارك في السفر قال: «أشتهي سويقاً، فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل للسلطان، وكان معنا في السفينة فذكرنا ذلك لعبد اللّه، فقال دعوه فمات ولم يشربه. الذهبي: سير أعلام ج8 ص363.

وأرض يـــا ويـــحـــك مـــن دنـيـاك بـالـقـوت الـيـسـيـر
إنـــهـــا دار بـــلاء وزوال وغـــــرور
مـــا تـــرى قـــد صـــرعـــت قـبـلـك، أصـحـاب الـقـصـور
كـــم يـــبـــطـــن الأرض مـــن ثـــاو شـــريـــف ووزيـــر
وصـــغـــيـــر الـــشـــأن عـــبـــد خـــامـــل الـــذكـــر حـــقـــيـــر
لـــم تـــمـــيـــزهـــم ولـــم تـــعـــرف غـــنـيـاً مـن فـقـيـر
حـمـدوا فـالـقـوم صـرعـى تـحـت أشـقـاق الـصـخـور
واســتــووا عــنــد مــلــيــك بـمـسـاويـهـم خـبـيـر
احـــذر الـــصـــرعـــة يـــا مـسـكـيـن مـن دهـر عـثـور
ابـــن فـــرعـــون وهـــا مـــان ونـــمـــرود الـــنـــسـور
أو مـــا تـــخـــشـــاه أن يـرمـيـك بـالـمـوت الـمـبـيـر
أو مـــا تـــحـــذر مـــن يـــوم عـــبـــوس قـمـطـريـر
أقـــمـــطـــر الـــشـــر فـــيـــه بـــعـــذاب الـــزمـــهـــريـــر

فغشي على الفضيل، فرد ذلك ولم يأخذه.

وسئل ابن المبارك: «أيهما أفضل: معاوية بن أبي سفيان أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر بألف مرة، صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال: سمع الله لمن حمده، فقال معاوية: ربنا ولك الحمد، فما بعد هذا؟»[118].

يبدو من هذه الأقوال التي أوردتها المصادر عن مواقف ابن المبارك السياسية أنه كان يمقت الجهمية والمعتزلة ويسعى إلى تطبيق قواعد الإسلام كما جاء بالقرآن الكريم والسنة والنبوية الشريفة ويعمل على وحدة المجتمع الإسلامي ولا يقف نداً للفرق والمذاهب المعتدلة. والواضح أنه كان يميل إلى الصوفية وأصحاب الحديث. كما أنه لا يقف موقف الند من السلطة ولكنه في

(118) الأصبهاني: حلية الأولياء ج8 ص169، الذهبي: سير أعلام ج8 ص357.

الوقت نفسه يرفض الأخذ منها لما في ذلك من مخاطر على موقف العلماء والمحدثين[119]. ولبني هاشم مكانتهم في أعماق ابن المبارك فقد روي: أن رجلاً من بني هاشم قدم إليه ليسمع منه. فأبى أن يحدثه، فقال الشريف لغلامه: قم فإن أبا عبد الرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب، جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن تفعل هذا ولا نرى أن تحدثني: فقال: أذل الله بدني، ولا أذل لك الحديث»[120].

شجاعته وجهاده:

عد ابن المبارك من بين الشجعان الذين تضرب الأمثال بمواقفهم واستعدادهم للذود عن حمى العقيدة ولهذا فقد قيل أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً[121]. وهو الذي يقول:

كيف القرار وكيف يهدأ مسلم ... والمسلمات مع العدو المعتدى

الضاربات خدودهن برنة ... الداعيات نبيهن محمد

القائلات إذا خشين فضيحة ... جهد المقالة ليتنا لم نولد

ما تستطيع وما لها من حيلة ... إلا التستر من أخيها باليد

وقال أبو إسحاق الطالقاني ت225هـ «كنا عند ابن المبارك فانهد القهندز فأتي بسنين، فوجد وزن أحدهما منوان، فقال عبد الله:

أتيت بسنين قد رمنا ... من الحصن كما أثاروا الدفينا

على وزن صنوين أحدهما ... تقل به الكف شيئاً رزينا

ثلاثون سنا على قدرها ... تباركت ما أحسن الخالقينا

فماذا يقوم لأفواهها ... وما كان يملأ تلك البطونا

---

(119) ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد ت799هـ: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، مطبعة المعاهد، مصر 1351هـ ص131.

(120) الذهبي: سير أعلام ج8 ص364.

(121) المصدر نفسه، والجزء ص365.

إذا مـا تـذكـرت أجـسـامـهـم تـصـاغـرت الـنـفـس حـتـى تـهـونـا
وكـل عـلـى ذاك ذاق الـردى فـبـادوا جـمـيـعـاً فـهـم خـامـدونـا

وسمع بعضهم ابن المبارك وهو ينشد على سور طرسوس:

ومـن الـبـلاء ولـلـبـلاء عـلامـة أن لا يـرى لـك عـن صـوال تـزرع
الـعـبـد عـنـد الـنـفـس فـي شـهـواتـهـا والـحـر يـشـبـع مـرة ويـجـوع

وكتب إلى الفضيل بن عياض من طرسوس يشرح له حالة المقاتلين[122].

يـا عـابـد الـحـرمـيـن لـو أبـصـرتـنـا لـعـلـمـت أنـك فـي الـعـبـادة تـلـعـب
مـن كـان يـخـضـب جـيـده بـدمـوعـه فـنـحـورنـا بـدمـائـنـا تـتـخـضـب
أو كـان يـتـعـب خـيـلـه فـي بـاطـل فـخـيـولـنـا يـوم الـصـبـيـحة تـتـعـب
ريـح الـعـبـيـر لـكـم ونـحـن عـبـيـرنـا وهـج الـسـنـابـك والـغـبـار الأطـيـب
ولـقـد أتـانـا مـن مـقـال نـبـيـنـا قـول صـحـيـح صـادق لا يـكـذب
لا يـسـتـوى وغـبـار خـيـل الله فـي أنـف أمـرئ ودخـان نـار تـلـهـب
هـذا كـتـاب الله يـنـطـق بـيـنـنـا لـيـس الـشـهـيـد بـمـيـت لا يـكـذب

فلما قرأ الكتاب وهو بالحرم بكى، ثم قال: «صدق أبو عبد الرحمن ونصح»[123].

وكان الغزو يستهويه ويثير في نفسه الحمية والاستعداد للتضحية والفداء. ولما خرج مرابطاً إلى الشام ونظر ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا كل يوم التفت إلى أصحابه وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفنيناها وليال وأيام قطعناها في علم الخلية والبريه وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتوحة»[124].

وعن شجاعته وحبه للشهادة تحدث من كل معه بطرسوس إنه لما اصطف

(122) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج5 ص175،
(123) الذهبي: سير أعلام ج8 ص361.
(124) ابن فرحون: الديباج ص131.

الجمعان «الإسلامي والبيزنطي» خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجل فشد العلج عليه فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إلى ابن المبارك فقال: يا فلان إن قتلت فافعل كذا وكذا، ثم حرك دابته وبرز للعلج، فعالج معه ساعة، فقتل العلج وطلب المبارزة، فبرز له علج آخر فقتله، حتى قتل ستة علوج، وطلب البراز فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته وطرد بين الصفين ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنابه في الموضع الذي كان، فقال لي: . . . لئن حدثت بهذا أحداً، وأنا حي، فذكر كلمة[125].

من أقواله في العلم والعلماء:

قال ابن المبارك «أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم العلم ثم الحفظ ثم النشرة»[126].

وقال: «عجبت لمن لم يطلب العلم، كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة»[127].

وقال: «من بخل بالعلم ابتلى بثلاث: أما موت يذهب علمه، وأما ينسى وأما يصحب فيذهب علمه»[128]. ولما سئل من الناس أجاب العلماء[129].

وسئل ابن المبارك يوماً في أي شيء يحصل المرء فضل يومه، في تعلم القرآن أو في طلب العلم؟ فقال: «تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك». قال: نعم، قال: «فاجعله في طلب العلم الذي يعرف به القرآن».

وقيل لابن المبارك يوماً عمن نأخذ العمل «الحديث» قال: «من طلب

---

(125) الذهبي: سير أعلام ج8 ص352.

(126) الأصبهاني: حلية ج8 ص165، الذهبي: سير أعلام ج8 ص353، يوردها وأما يلزم السلطان فيذهب علمه.

(127) الذهبي: سير أعلام ج8 ص353.

(128) الأصبهاني: حلية ج8 ص165.

(129) المصدر نفسه والجزء ص277.

العلم لله وكان في إسناده أشد، قد تلقى الرجل ثقة، وهو يحدث عن غير ثقة، وتلقى الرجل غير ثقة وهو يحدث عن ثقة ولكن ينبغي أن يكون ثقة عن ثقة[130].

وكان دقيقاً في نقل الأحاديث اعتمد الكتابة فقد روى عن أحمد بن حنبل ت241هـ إنه قال: «كان ابن المبارك يحدث من الكتاب، فلم يكن له سقط كثير، وكان وكيع يحدث من حفظه. فكان يكون له سقط كم يكون حفظ الرجل»[131].

روى غير واحد أن ابن المبارك قيل له: «إلى متى تكتب العلم؟ قال: لعل الكلمة التي انتفع بها لم أكتبها بعد»[132].

وله موقف شديد من التدليس والمدلسين ومن شعره فيه[133]:

دلس للناس أحاديثه ... والله لا يقبل تدليسا

روى عنه أنه قال:

«طلبت الأدب ثلاثين سنة وطلبت العلم عشرين سنة. كانوا يطلبون الأدب ثم العلم»[134].

ولما سئل في بلاد الشام إلى متى وأنت تطلب العلم قال: «أرجو أن تروى فيه إلى أن أموت أليس يقال له يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في الماء. . . وكان كثيراً ما ينشد[135]:

وإذا صاحبت فاصحب فاضلاً ... ذا عفاف وحياء وكرم

قوله له للشيء لا أنت قلت لا ... وإذا قلت نعم قال نعم

---

(130) الذهبي: سير أعلام ج8 ص360.

(131) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(132) الذهبي: المصدر نفسه ج8 ص361.

(133) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج10 ص163.

(134) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج1 ص360.

(135) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج8 ص357.

ولما سئل عن كتابة العلم أجاب «لولا الكتاب ما حفظنا». وقال: «الحبر في الثوب خلوق العلماء»[136].

مؤلفاته ومصنفاته:

ذكر ابن النديم أن لأبي عبد الرحمن من الكتب كتاب السنن في المقدمة وكتاب التفسير وكتاب التاريخ وكتاب الزهد وكتاب البر والصلة[137].

وذكر حاج خليفة أن له من الكتب الأربعين الطوال وقال الإمام النووي هو أول من علمته صنف فيه[138]. وكتاب رقاع الفتاوى ـ الرقاق[139]، وكتاب الجهاد وهو أول من ألف فيه وكتاب الزهد[140].

توفي ابن المبارك في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومئة في مدينة هيت من منصرفه من الغزو[141] ولبعض الفضلاء مدح فيه[142].

---

(136) المصدر نفسه والجزء ص361.

(137) أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق ت438هـ: الفهرست، تحقيق رضا ـ تجدد ـ طهران (د. ت ص284.

(138) مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب حلبي.
كشف الظنون، عن أسامي الكتب والفنون، استنبول 1360هـ، ج1، ص57.

(139) المصدر نفسه ج1، ص111.

(140) المصدر نفسه ج1، ص1410/ 1422.

(141) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج10 ص168، ابن حيان: الثقات ج7 ص7، مشاهير علماء الأمصار ص194، الذهبي: تذكره الحفاظ ج1 ص279 سير أعلام النبلاء ج8 ص369، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ج5/ 386. أما الروايات الأخرى كالتي ذكرت وفاته في سنة 161هـ هي بلا شك خطأ وقع به المصنف أو المؤلف «انظر المسعودي أبو علي بن الحسين بن علي ص346هـ، مروج الذهب تحق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1967، ج3 ص350». والرواية التي تقول أن وفاته كانت 279هـ أو 282هـ فهي روايتين غير مؤكدتين: ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله ت571هـ تاريخ مدينة دمشق مخطوطة مصورة عن فيلم بتركيا نسخة منه في مكتبة الأوقاف بغداد رقم 6/ 8 مصوران ورقة 2629 نقلاً عن إسماعيل عبد الرزاق محمود الهيبي عبد الله بن مبارك حياته وفقهه (رسالة ماجستير غير مطبوعة جامعة بغداد ـ كلية الشريعة 1409/ 1989 ص99 وكذلك
J. Robson, Ibn al-Mubarak E.I London 1971 vol., VII p.879.

(142) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8 ص370 ـ 371.

مررت بقبر ابن المبارك غدوة فأوسعني وعظاً وليس بناطق
وقد كنت بالعام الذي في جوانحي غنياً وبالشيب الذي في مفارقي
ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً إذا هي جاءت من رجال الحقائق

وهو الذي يقول[143]:

المرء مثل هلال عند رؤيته يبدو ضئيلاً تراه ثم يتسق
حتى إذا ما تراه ثم أعقبه كَرُّ الجديدين نقصاً ثم يمحق

وهو القائل أيضاً[144]:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلا غلق تبتاع بالدين أموال المساكين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به وليس يفلح أصحاب الشواهين

وقال ينشد حين خروجه إلى مكة[145]:

بغض الحياة وخوف الله أخرجني وبيع نفسي لما ليست له ثمناً
إني وزنت الذي يبقى ليعدله ما ليس يبقي فلا والله ما اتزنا

ولما بلغ خبر موت ابن المبارك الخليفة هارون الرشيد قال: «مات اليوم سيد العلماء»[146] وأمر الأعيان والناس أن يعزوه بموته فأتوه يعزونه وتعجب وزيره من ذلك فقال الرشيد أما هو القائل:

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لأقوانا[147]

---

(143) المصدر نفسه ج8 ص371.

(144) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون ت544هـ: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود (دار مكتبة الحياة بيروت، دار مكتبة الفكر طرابلس ليبيا (د.ت) ج1 ص305، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج3 ص33.

(145) ابن خلكان ج3 ص33 ـ 34.

(146) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج8 ص369.

(147) الذهبي: المصدر نفسه ج8 ص365 ص369.

وقال الرشيد فمن يسمع هذا من ابن المبارك، ولا يعرف حقنا[148].

ومما يثير الانتباه في موت ابن المبارك أنه مات في سفينة منصرفاً من غزوة وهذا يعني أن عدداً من الجند كانوا ينقلون بالسفن بعد منصرفهم من الغزو إلى المناطق التي يرغبون الوصول إليها وهي أيسر وأسرع في موسمي الربيع والصيف.

ولا بد من الإشارة إلى جهود ابن المبارك في إقناع ثلاثة من الرهبان المسيحيين للدخول في الدين الإسلامي وإسلامهم على يده[149]. وتمكن ابن المبارك أيضاً من إدخال عدد من الشبان النصارى إلى الدين الإسلامي ومنهم الحسن بن عيسى الماسرجسي النيسابوري ت239هـ[150].

هذه ملامح مضيئة من حياة علم من أعلام الفكر الإسلامي نذر نفسه في خدمة الإسلام منذ صباه حيث شد الرحال في طلب العلم متنقلاً بين أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة باذلاً ماله وجهده وموظفاً قابلياته العلمية في سبيل تركيز دعائم الإسلام. ساعياً إلى نشر الألفة والمحبة بين المسلمين في كل أرض وطئتها قدماه.

---

(148) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج1 ص309، قارن ابن حجر العسقلاني تهذيب التهذيب ج5 ص387، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج1، ص296، حيث ذكر أن ابن المبارك توفي في البراري مختاراً العزلة.

(149) Hujwiri, Abu'l Hasan 'Ali, Kashf al-Mahjub Er., Nicholson, R.A. (EJ.W Gibb Memorial Series) London 1959, pp.95 - 97.

(150) تفاصيل حياته وإسلامه، انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج7، ص351 ـ 355.